فكاهات

الكولونيل جيرار (١)

— ٩ —

ولما رأى جيرار اصغآء سامعيهِ زاد عجبهُ وأبرقت اسرّتهُ فقال

لم يكن الامبراطور يحتاج الى خدمة مهمة او يعرض لهُ اجتياز خطر جسيم الا كان اسمي اول شيء يتذكرهُ ولم يكن لينساهُ قط الاّ بعض الاحيان عند توزيع الرتب والاوسمة .. على انني لا اؤاخذهُ في ذلك وقد كنتُ كولونيلاً في الثامنة والعشرين من عمري وقائد فرقة في الحادية والثلاثين ولو دامت الحرب سنتين اخريين لكنت اخذت في يدي عصا المارشالية و بينها و بين العرش خطوة واحدة غير ان واترلو قضت على تلك الآمال ولم تؤيد احلامي كما احببت. ولكنها ابقت لاسمي ذكراً في التاريخ لا يمحوهُ زوال الدول . وما أقصهُ عليكم الآن قد كان الدرجة الاولى في سلم ارتقآئي والسبب الذي اوجد رابطة الوداد بين الامبراطور و بيني وقد كان الى الآن من الاسرار التي اوصاني الامبراطور ان لا أبوح بها مادام في قيد الحياة اما الآن وقد انتقل الى عالم آخر فانا في حلٍّ من قسمي فاقول

لا يخفى عليكم انني في مدة معاهدة تلسيت كنت لا ازال ملازماً في فرقة الهوسار العاشرة وكنت لا أملك قوت ليلة غير ان هيئتي ونظافة ملابسي خيّلت فيَّ هيئة العظمة واليسار ولا سيما بعد الشهرة التي نلتها في خوض المعامع فلم يبق الاّ ان تسنح لي فرصة سعيدة تفاجئني فاغتنمها لاصبح في عداد الابطال المحيطين بالامبراطور واليكم حديث تلك الفرصة التي منحتني ذلك الشرف العظيم

(١) بقلم نسيب افندي المشعلاني

لما رجع نابوليون الى باريس بعد صلح سنة ١٨٠٧ انطلق ببلاطهِ والامبراطورة الى فونتنبلو وهو في أوج عزهِ ومنتهى سطوتهِ لانهُ كان في ثلاث معارك قد أخضع النمسا وسحق بروسيا وارجع روسيا الى ورآء نهر نيمن . اما انكلترا فكانت تهرّ في سجنها ورآء المانش . ولو اننا تمكنا حينئذٍ من تقرير سلم مستمرّ لكانت فرنسا تمتعت بسلطة لم تحصل عليها دولة اخرى من عهد الرومانيين . اما أنا فكنت في ذلك الحين مشغولاً عن الاهتمام السياسي بالفتيات اللواتي سرَّهنَّ رجوع العساكر بعد غيابهم الطويل ولم يكن لجيرار الوقت الكافي لرد التحيات التي كنَّ يحيينهُ بها وكفاكم برهاناً على افتتانهنَّ بي انني الآن وقد بلغت الستين .... ولكن مالي ولوصف ما لا يجهلهُ احد . وكانت فرقتنا معسكرة في فونتنبلو ايضاً بقيادة الكولونيل لاسال والبلدة صغيرة يكتنفها من جميع جهاتها الغابة المشهورة وكانت دائماً مكتظة بالدوقات والامرآء والقواد والشرفآء وهم يجتمعون حول ذاك الرجل الصغير واكثرهم من الالمان وكان بعضهم ممن ساعدونا في الحرب الاخيرة فاتوا يطلبون المكافأة وبعضهم ممن قاومونا فاحضرناهم لينالوا الجزآء . اما ناپوليون فكان يسير بينهم بوجههِ الاصفر الصامت وينفذ فيهم اوامرهُ الماضية كانهُ القضآء المبرم بعد ان كان رجلاً بسيطاً ورآء مدفعهِ وقد رفعناهُ بسيوفنا وحرابنا الى ذروة العرش ولذلك كان لنا عندهُ المقام الرفيع لعلمهِ باننا مصدر قوتهِ وكنا نقرّ انهُ اعظم قائدٍ في العالم كما كان يقر اننا اعظم رجالٍ يمكنهُ ان يقودهم

وجلست يوماً مع رصفآئي الضباط في نادي المعسكر فانهمكنا في المقامرة والشرب والتأنق اقتداءً بزعيمنا لاسال معتقدين ان صفاتهِ هذه كانت سبباً لترقيتهِ مع ان الامر بالعكس ولم يصل الى ما هو فيهِ الا لما رآهُ فيهِ الامبراطور من الجرأة والكفاية . واذا بلاسال نفسهِ قد دخل حتى حاذاني فضرب كتفي بيدهِ اللطيفة وقال يا جيرار ان الامبراطور يأمرك ان تذهب اليهِ في الساعة الرابعة . فلما سمعت ذلك ملكتني الحيرة حتى شعرت ان جدران الغرفة تدور بي وقلت اصحيح ذلك يا مولاي . ان الامبراطور لا يعرفني فما عساهُ ان يريد مني . فتبسم لاسال وقال

لا اعلم ولعلهُ في احتياج الى سيف صقيل وذراع متينة وعسى ان يكون استدعآؤك هذا سبباً لترقيتك فاذهب يا بنيَّ بلَّغك الله مرامك . ولا تنسَ اننا في الساعة الثانية الآن فسأذهب واعود اليك لنكون امام غرفة الامبراطور في الساعة الرابعة حسب امرهِ . ولما ذهب لاسال بقيت كالحائر وانا اناجي افكاري لعلي اعرف قصد الامبراطور من طلبي فكنت تارةً اظنهُ يدعوني ليكافئني على ما فعلتهُ في معركة استراتز وطوراً يخيل لي ان المبارزات العديدة التي كنت اقوم بها في اكثر الايام قد بلغت مسامعهُ وسيعاقبني عليها ومضى عليَّ الوقت وأنا اترجح بين كفَّتي الخوف والامل

وقبل حلول الموعد بنصف ساعة دخل عليَّ لاسال وفي صحبتهِ رجل اعرج بثوبهِ الاسود . ومع ان رجال الجندية لا يعرفون الملكيين لعدم اختلاطهم بهم فانني عرفت الرجل حالاً لشهرتهِ وهو تاليراند الذي كان الامبراطور نفسهُ يهتم باسمهِ . وعرّفني لاسال بهِ فحييتهُ ونظر اليَّ بعينين صغيرتين براقتين اخترق نظرهما الحاد صدري كحربة قاطعة . ثم نظر الى لاسال وقال هل أطلعت الملازم جيرار على الشؤون التي اوجبت استدعآءهُ . فقال لا . ثم التفت لاسال اليَّ وقال انني كنت اليوم صباحاً في غرفة الامبراطور الخصوصية فاحضروا اليهِ رسالةً فضَّها وما كاد يتم قرآءتها حتى بدت عليهِ علامات الدهش وسقطت الرسالة من يدهِ الى الارض . فالتقطتها لاناولهُ اياها فرأيتهُ قد جمد نظرهُ الى الحائط كمن رأى شبحاً مخيفاً ثم سمعتهُ يردّد بصوت أجش هذه الكلمات « اخوية اجاشيو ... اخوية اجاشيو » ثم اخذ الرسالة من يدي واعاد قرآءتها بتأنٍّ وانطرح على كرسيهِ فلبث نحو نصف ساعة كانهُ في غيبوبة . وكنت لا ازال واقفاً امامهُ لا ادري ماذا يجب ان افعل ثم رأيتهُ قد عاد الى رشدهِ فنظر اليَّ وقال اظن ان فرقتك لا تخلو ولو من ضابطٍ واحد شجاع يعوَّل عليهِ . قلت كل واحد من فرقتي يصدق عليهِ هذا الوصف يامولاي . فقال ولكنك اذا خُيّرت في انتقآء واحد منهم يكون اشجعهم واسرعهم عملاً ولا يكون من الذين يفتكرون كثيراً فمن تختار . قلت يوجد بينهم فتىً قلبهُ من حجر وكل تأنقهِ في شاربيهِ ومناخسهِ وهواهُ منقسم بين النسآء والخيل . فقال

الامبراطور هذا هو الرجل الذي احتاج اليهِ فأحضرهُ الى غرفتي هذا اليوم في الساعة الرابعة . فحييتُ وخرجت وجئت توًّا اليك يا جيرار لتقتي بك انك لا تشين شرف فرقة الهوسار العاشرة . ولا بد ان هذا الاطرآء ظهرت نتيجتهُ على وجهي بدون قصد مني لانني رأيت لاسال يقهقه ضاحكاً وتاليراند يبتسم

ثم نظر اليَّ تاليراند وقال لا اظنك تجهل يا مسيو جيرار ان امامك مهمةً عظيمة وان كنا لا نعرف ما هي غير انهُ لما كانت سلامة فرنسا وامبراطورها مطلوبة منا وعهدتها ملقاة علي عواتقنا فسنتظرك هنا لتعلمنا بما يريدهُ الامبراطور ونحن نشير عليك ماذا يجب ان تفعل فاذهب ولا تتأخر فقد ازف الوقت ولا شيء يسوء الامبراطور مثل عدم المحافظة على المواعيد

وما صدّقت ان أُذِن لي في الانصراف حتى توجهت الى القصر ولم يكن يبعد عنا اكثر من مئة خطوة فبلغتهُ ودخلت الدار الخارجية فوجدت عدداً غفيراً من الكبار ينتظرون مقابلة الامبراطور واكثرهم من نبلآء الالمان بعضهم ينتظر الترقية والبعض يتوقع العقاب . ورأيت امام غرفة الامبراطور صديقي الضابط ديروك وهو الذي قادني الى غرفة بوناپرت الخصوصية . وكنت قد رايت الامبراطور اكثر من مئة مرة في ساحة القتال ولكنني لم اقف امامهُ قط وجهاً لوجه ولو لم اكن اعرفهُ سابقاً لرأيتهُ كواحدٍ من اصاغر الناس الا ان لعينيهِ نظرةً حادّة غريبة ترتعد لها فرائص اشجع الفرسان . ورآني الامبراطور فاشار اليَّ ان انتظرهُ حذآء الباب وكان كاتبهُ دي منيفال يكتب ما يمليهِ عليهِ فلما انتهى صرفهُ وخلونا وحدنا في الغرفة . فاقترب مني وفحصني بنظرهِ الخارق وكنت قد وضعت يدي اليسرى على مقبض سيفي واليمنى على رأسي محيياً . ولا شك ان هيئتي اوجبت استحسانهُ فانهُ تبسم ثم ضرب باصابعهِ كتفي وقال بلغني من الكولونيل لاسال انك ضابط يعتمد عليهِ في قضآء مهمات الدولة . فهممت ان اجيبهُ ولكنني تذكرت ما قالهُ لي لاسال من وجوب بقآئي صامتاً بين يديهِ فسكتُّ وكانهُ شعر بما يخالج صدري فعاد الى حديثهِ قائلاً انك يا مسيو جيرار الرجل الذي اريدهُ الآن غير انهُ قد بلغ مسامعي ما تفعلهُ في

المبارزة وانك لا ترى ضابطاً حتى توقع بينك و بينهُ مشكلاً ثم تدعوهُ الى البراز وانك تخرج دائماً منتصراً . ثم غير لهجتهُ وقال اعلم يا هذا انني اودّ ان تتعلم عساكري مقاتلة الاعداء لا مقاتلة بعضها بعضاً فاذا بلغني بعد الآن مثل هذه الاخبار عنك سحقتك بين اصابعي هكذا . وعرك ابهامهُ وسبابتهُ امام وجهي فشعرت ان الارض تفتح فاها لابتلاعي . اما هو فرجع الى مائدتهِ فشرب قدحاً من القهوة كان هناك ثم عاد اليَّ وقد تساير الغضب عن وجههِ فتبسم وقال انني في احتياج اليك يامسيو جيرار ولكني اوصيك ان تكتم ما سأقولهُ لك عن كل بشر وان لا يتعدى صدرك ما بقيتُ حيًّا فأقسم لي بشرف الجندية انك لن تبوح بما سأطلعك عليهِ ففعلت . ثم قال لي انني اطلب منك الطاعة العمياء ليس الا واياك ان تفتكر في غير ذلك لانني محتاج الليلة الى سيفك لا الى ذكائك فهل تعرف البقعة الكائنة في وسط الغابة . قلت نعم يامولاي . قال وهل تعرف شجرة الزان الكبيرة التي في وسطها. قلت نعم يا مولاي . قال حسنٌ فقابلني هناك في هذه الليلة عند الساعة العاشرة حيث ندخل الغاب معاً وخذ معك سيفك ولا تأخذ غدارتك واذكر انهُ لا ينبغي ان تكلمني البتة ولا اكلمك بل نتقدم معاً الى داخل الغابة صامتين الى ان نرى رجلاً او اثنين تحت احدى الاشجار فنقابلهما معاً فاذا اشرت اليك ان تدافع عني فليكن حسامك مستعدًّا اما اذا تكاثمت معهما فانتظر وراقب ما يكون. واذا بدأتَ بالدفاع عني فاياك ان ينجو احدهما وانا اساعدك . قلت سمعاً وطاعةً يا مولايَ وحسامي لا يقصر عن قتل الاثنين ولكن الا يكون الافضل ان يكون غيرك مساعداً لي حتى لا تعرض شخص جلالتك للخطر . قال انني كنت جنديًّا مدفعيًّا قبل ان اصير امبراطوراً فلا يصعب عليَّ امتشاق الحسام فافعل كما امرتك والآن فانصرف وكن على استعداد . فانحنيت وهممت بالخروج ثم خطر لي امر فعدت الى امام جلالتهِ وقلت قد افتكرت يا مولاي . . . . فقاطعني بحدّة قائلاً دعني من فكرك وهل تظن انني استدعيتك لتعطيني افكارك . قد قلت لك ما يجب ان تفعل وكفى

اما انا فما صدقت ان خرجت من لدنهُ فجعلت اعدو الى ان بلغت غرفتي

كالولد الصغير الذي يسرّهُ ان ينجو من انتهار معلمهِ القاسي . ورأيت لاسال وتاليراند في انتظاري فنهضا لمقابلتي وقالا معاً ما هي اخبارك يا جيرار . فقلت لا شيء . فقال لاسال ألم يقابلك الامبراطور . قلت بلى . فقال تاليراند وماذا قال لك . قلت لا استطيع ان ابوح بما جرى لانني اقسمتُ لهُ على الكتمان . فقال هازئاً ما شآء الله الا تعلم ان ما تقولهُ لنا لا يتجاوز حائط هذه الغرفة وان الامبراطور لا يخفي عني شيئاً . قلت ان كان كذلك فلا اكثر من ان تتكرم بالذهاب اليهِ وتسألهُ عما تروم معرفتهُ فليست المسافة ببعيدة . فكشر تاليراند حتى بانت نواجذهُ وقال بغيظ يظهر ان المسيو جيرار لا يزال صغيراً فينتفخ لاقل مظهرٍ يراهُ ولكنهُ سيعلم فيما بعد ان الجندي لا يرفض طلب رؤسآئهِ بانفةٍ كهذه

وأردت ان اجاوبهُ فقطع عليَّ لاسال قائلاً لو علمتُ انهُ أقسم على الكتمان لما كنت سألتهُ ولست اشك يا مسيو تاليراند انهُ لو اجابك لاحتقرتهُ انت ولوبختهُ انا وطردتهُ حالاً من الفرقة العاشرة لانهُ لا يعود يستحق البقآء فيها . فنظر اليهِ تاليراند نظرة استهجان وقال ولكني اراني مضطرًّا في مركزي الحالي المطلوب مني فيهِ المحافظة على سلامة فرنسا وامبراطورها ان اعلم كل شيء ولو خالفت اوامر جلالتهِ الوقتية وسأعرف ما أريد معرفتهُ من محل آخر . ولما قال هذا حيَّا وخرج ناظراً اليَّ نظرة الانتقام . وظهر لي ان لاسال لا يريد معاندة هذا الوزير لانهُ ما عتم ان تبعهُ فرأيتهما سائرين معاً ولاسال يتكلم بالحاح كانهُ يوضح لهُ قصدهُ لكي لا يحقد عليهِ

اما أنا فقد كان اوصاني الامبراطور ان لا افتكر فاجتهدت ان اطيعهُ بتسلية نفسي فاخذت ورق اللعب من جيبي وجعلت اصفّهُ على المائدة ولكنني لم أعد اميز بين اللون الواحد والاخر فطرحتهُ يائساً ثم عمدت الى سيفي وجعلت امرّن نفسي عليهِ بضرب الهوآء حتى كلت يدي . ولم يكن كل ذلك ليبطل حركة افكاري فعلمت انني لا استطيع اماتتها كما يريد جلالتهُ فدخلت غرفتي واطلقت لها العنان فكانت تريني تارةً فشلي وكدر الامبراطور مني وطوراً نجاحي وبنآء اساس مستقبلي فقضيت تلك الحصة من الوقت على أحر من الجمر حتى دنت الساعة العاشرة وهي

الموعد المضروب فارتديت دثاري العسكري وتقلدت فوقهُ سيفي ثم غيرت حذآئي الثقيل بأخفّ منهُ لاكون اسهل حركةً وانسلات من غرفتي قاصداً الغابة . واذ ذاك سُرّي عني لانهُ كان من طبعي ان أشعر بالراحة حين يدنو الخطر . ومررت من امام نادينا فرأيت رفاقي يشربون ويلعبون غير عالمين بما يفعلهُ رفيقهم وناداني احدهم فتظاهرت بالصمم واسرعت في المسير فسمعتهُ يشتمني . وكنت اودّ ان ارجع اليهِ وأريهُ شيئاً من حسامي غير انني خشيت ضياع الوقت فمضيت في سبيلي

ولما بلغت أول الغابة برز القمر من خلال الاشجار فلم أجد صعوبة في الوصول الى الشجرة المعهودة . فلما بلغتها رأيت ان الامبراطور قد سبقني اليها وهو يتمشى ذهاباً واياباً وقد حنى رأسهُ على صدرهِ تحت قبعتهِ المثلثــة وغطى جسمهُ بدثارهِ الرمادي فخفت أن يلومني لتأخري عنهُ ووصولهِ قبلي ولكنني قبل أن اصل اليهِ سمعنا ساعة كنيسة فونتنبلو تدق ضرباتها العشر . وكنت لم أنسَ ما أوصاني بهِ من وجوب الصمت فلما صرت على مسافة اربع خطوات منهُ وقفت وحيّيت فنظر اليَّ ولم يجب ثم حوّل ظهرهُ ومشى الى داخل الغابة فتبعتهُ محافظاً على المسافة التي بيننا وكان يتلفت يميناً وشمالاً كانهُ يخاف أن يرانا أحد . وما زلنا سائرين مسافة ميل فعلمت اننا نقصد شجرة تعرف بقبر رئيس الدير وقد اشتهر عنها انها مألف الجان والارواح ولكنني لم اعتقد بهذه الترهات وسرني ان الامبراطور نفسهُ من معتقدي ايضاً . ولما بلغنا الشجرة المذكورة رأينا على نور القمر رجلين بانتظارنا وكانا قد لصقا بجذع الشجرة كانهما يتحاميان ان يراهما أحد . فلما صرنا بجانبهما انفصلا عنها واقتربا لمقابلتنا فنظر اليَّ الامبراطور وقد خفف سيرهُ الى أن حاذيتهُ . ودققت نظري في القادمين فرأيت احدهما طويل القامة جدًّا عريض المنكبين ضخم الجسم والآخر قصير القامة غليظاً يكاد طولهُ يساوي عرضهُ وكانا قد التفا بأردية سوداء وعلى رأس كلٍّ منهما قبعة صغيرة تغطي جبهتهُ الى قرب عينيهِ وهما تبرقان من تحتها كالنار المشتعلة . وكانا يسيران باحتراس وباقدام ثابتة الى أن وقفا على بعد نحو خمس خطواتٍ منا فكان منظرنا مرهباً كاننا أسدان امام نمرين . ولاحظت

ان اطولها قَلِق عصبي المزاج يرتعش جسمهُ غيظاً وقد زاد تنفسهُ وانفتح انفهُ وسمعتهُ يلهث كالكلب العائد من الصيد . ثم اعطى احدهما علامة بصفير خفيف فرأيت اطولها قد حنى ظهرهُ وركبتيهِ كمن يتحفز للوثوب وفي أسرع من لمح البصر كنت قد صرت امامهُ والسيف مصلت في يدي . وفي الدقيقة نفسها وثب اقصرهما فصار امام الامبراطور و بيدهِ خنجرٌ أغمدهُ الى مقبضهِ في صدرهِ . فآه ما أشدّ هول تلك الساعة واني لاعجَب من عدم سقوطي ميتاً عند ما رأيت الامبراطور المحبوب يتهادى وقد أخذ الدم يتدفق من صدرهِ ثم تنهد بحشرجةٍ وسقط الى الارض . اما القاتل فترك خنجرهُ في صدر فريستهِ ورفع ذراعيهِ الى العلاء ضاحكاً مسروراً . فاصابني جنون دفعني عليهِ اندفاع الصاعقة فضربتهُ بمقبض سيفي على صدرهِ ضربةً شديدة كسرت لهُ ضلعين والقتهُ على بعد ست خطوات مني ثم عطفت على رفيقهِ وقد استولى عليَّ حب الانتقام والتعطش لسفك الدمآء مما لم أشعر بمثلهِ في حياتي . ولكنني ما كدت التفت اليهِ حتى رأيت خنجراً لامعاً قد مرَّ امام عينيَّ ويداً أمسكت بعنقي . فدفعتهُ عني بعنف ورفعت سيفي لاضربهُ وقبل أن أفعل تملص مني واطلق ساقيهِ للريح فكان يعدو بأسرع من عدو النعام . ولا تظنوا ان جيرار كان يتركهُ يفرّ على هذه الصورة غير انني علمت ان خنجر رفيقهِ كان قد فعل فعلهُ فوقفت لحظةً امام جثة الامبراطور وأخذت يدهُ الباردة بيدي وناديتهُ بتألم يا مولاي يا مولاي فلم اسمع جواباً بل رأيت بقعة الدم تتسع على الارض بجانبهِ فتحققت انهُ لم يبقَ أقل أمل. وللحال وثبت على قدميَّ فألقيت عني ردآئي الثقيل وجعلت اعدو ورآء الفارّ وقد ظهر لي صواب فكري في تغيير حذآئي الثقيل . وكأن اللعين ادهشهُ الرعب او ثبَّطهُ ردآؤهُ عن الاسراع فرأيت انني سأدركهُ لا محالة . ولو بقي عقلهُ معهُ لاختفى في بعض ادغال الغابة وتعسر عليَّ الاهتدآء اليهِ غير ان الخوف افقدهُ رشادهُ فسار في طريق ينيرها القمر وانا لا انفك عن مطاردتهِ حتى بلغ شفير هاوية تحتها النهر فألقى بنفسهِ واختفى عن نظري . ولما صرت في نفس المكان خطر لي انهُ طرح نفسهُ الى النهر تخلصاً مني

غير ان سمعي الحاد ارشدني اليهِ . وكان عند منتصف الهوة غرفة قد بناها النوتية لوضع أدواتهم فيها فدخلها وقد ظنّ انهُ يأمن اتباعي اياهُ وان ظلمة الغرفة تخيفني فلا اتبعهُ . ولم يدرِ ان الدم الذي كان يجري حينئذٍ في عروقي كان يقودني الى حيث ترتجف الابطال فوثبت ورآءهُ ودخلت الغرفة وسيفي مصلت بيدي فجعلت اضرب بهِ في تلك الظلمة . ويظهر ان ضربتي الاولى كانت القاضية لانني سمعت سقوط جسمهِ الى الارض ولكني لم اكتفِ فطعنتهُ طعناتٍ عديدة تشفياً حتى بطلت حركتهُ . فاوقدت ثقاباً ونظرت اليهِ فوجدتهُ قد فاضت روحهُ فوثبت الى الخارج وجعلت اعدو الى البقعة التي تركت فيها جثة الامبراطور . وقبل ان أبلغها عاد امام مخيلتي ما جرى لنا في تلك الساعة فوقفت اتأمل ثم رأيت حجراً فجلست عليهِ واسندت رأسي بيديّ وجعلت انتحب لا عن وجلٍ او تعب ولكني تفكرت فيما جرى وما سيكون فان الامبراطور قد فوّض اليّ حراستهُ وها هو ميت على غير بعدٍ مني . ولا انكر انني قمت باجرآء ما أمر وقد انتقمت لهُ ولكن ماذا يفيد كل ذلك وكيف أقرر هذه الحقيقة ومن يصدقني أوَلا يظنني البعض شريكاً للقتلة . واذ ذاك تمثل لي مركزي الحرج وعلمت انني اصبحت تعِساً شقيًّا وقد فقدت شرفي وكل آمالي العسكرية وآمال والدتي ايضاً . فتبسمت تبسم اليائس وأخذت اسأل نفسي هل اذهب الى فونتنبلو فاخبرهم بما جرى او اخترق صدري بسيفي فنموت جميعاً ونترك الناس يقولون ما شآءوا متى وجدوا جثثنا . وانني لكذلك واذا بحركة استدعت انتباهي فنظرت واذا بالامبراطور نفسهِ امامي بقبعتهِ وردآئهِ الرمادي وقد انار القمر وجههُ فرأيتهُ مصفرًّا كئيباً وقد ضمّ يديهِ ورآء ظهرهِ . فدهشت وجحظت عيناي وكدت افقد صوابي ثم رأيتهُ تبسم فعلمت انهُ ليس شبحاً بل شخصاً حقيقيًّا فوثبت على قدميّ ورفعت يدي مسلماً السلام العسكري . فقال يظهر لي انك قد قتلت احد الرجلين لانني رأيت جثتهُ بالقرب من هذا المكان . قلت نعم يا مولاي . قال وهل نجا الآخر . قلت كلا فقد قتلتهُ ايضاً . فرأيت دلائل السرور قد اشرقت في وجههِ فتقدم اليّ متبسماً وقال ماذا تقول هل قتلت

الآخر ايضاً . قلت نعم يا مولاي فالجثة الاولى هنا والثانية في غرفة العملة بجانب النهر . فصمت هنيهةَ كانهُ يناجي نفسهُ ثم قال اذاً قد انقضى امر اخوية اجاشيو وخلصت من ظلها . ثم عاد اليَّ فوضع يدهُ على كتفي وقال وقد رأى حيرتي اشكرك يا مسيو جيرار فلا تخف ولا تظن انني خيال فانني لم امت وتعالَ معي اطلعك على الحقيقة . ثم سار امامي فتبعتهُ الى البقعة التي قابلنا فيها الرجلين وكانت الجثتان لا تزالان على الارض يحرسهما رستم ومصطفى مملوكا بوناپرت . فتقدم ناپوليون الى الجثة التي كنت اظنها اياهُ ورفع قبعتها فقال هذه جثة احد خدمي الامنآء . اجل هذا دي جودين الذي بذل نفسهُ لاجلي لانهُ يشبهني في الجسم والقامة والصورة . فلما تحققت ذلك كدت اطير فرحاً حتى اوشكت ان اضمهُ الى صدري واقبلهُ وكانهُ عرف قصدي فرجع خطوةً الى الورآء وقال هل اصابك شيء من الضرر . قلت كلا يا مولاي ولكنني لو تأخرتَ عليَّ دقيقةً واحدة لانتحرت . فقال قد سرني فعلك وقد رأيت كل ما فعلتهُ لانني كنت مختفياً الى جانب فرأيت سقوط جودين الذي يمثاني فهلمَّ بنا الى القصر . ثم القى بعض الاوامر على مملوكيهِ وسار اتبعهُ انا ولم أسر في حياتي كما سرت في ذلك الحين وقد نصبت قامتي ورفعت رأسي وقتلت شاربيَّ كما يليق بحراس الامبراطور وأمنآء سرهِ . ورأى ذلك مني فقال اهذا شأن من يقوم بمهمة سرية يا جيرار وهل تريد ان يعلم الجميع ما قمت بفعلهِ الآن فأقلع عن هذه السخافة والا ارسلتك الى حيث يخني ظهرك العمل ويبيض عارضيك الغم . فسكتُّ لمعرفتي طبعهُ وتبعتهُ صامتاً حتى بلغنا القصر فدخل غرفتهُ وتبعتهُ اليها . ولا اشك ان الخفرآء تعجبوا من لحاقي بهِ في مثل تلك الساعة . اما هو فانطرح على كرسيهِ الطويل وغرق في تأملاتهِ وبقيت واقفاً امامهُ حتى سئمت الانتظار فابديت حركةً نبهتهُ اليَّ فقال لا شك انك تستغرب ما حصل في هذه الليلة فاذا لم اخبرك السبب فلا بد ان يسوقك الاستغراب الى السؤال والفحص فلا يمضي يومان حتى ينتشر الخبر في جهات فرنسا ولذلك ارى الافضل ان اطلعك على المسألة ليزول استغرابك فتتمكن من حفظ هذا السر العميق فاسمع .

ان هذين الرجلين من كرسكا وانا اعرفهما منذ صباي وكنا جميعاً اعضآء جمعية واحدة تدعى اخوية اجاتيو لها قوانين سرية هائلة تجازي بالموت كل من يحيد عنها وقد كانت هذه الاخوية تليق بنا في ذلك الوقت ولم يكن فيها اصدق اخآء مني . اما الآن فقد تغيرت الاحوال فليس من مصلحتي ولا من مصلحة فرنسا ان اخضع لهذه الاخوية . وقد شآء ذانك الرجلان ان يتحققا انضمامي اليها فقتلتهما لانهما رئيسان اتيا من كرسكا وطلبا مواجهتي في ذلك المكان من الغابة وعلمت الغـاية التي يرومانها لان الشركة لا تدعو احداً الى مواجهة سرية ويعود منها وانا لا اجهل ذلك فلو كنت مكاني يا جيرار ماذا كنت تفعل . قلت كنت آمر فرقة الهوسار ان تكتسح الغابة وتقبض عليهما حيثما وجدا . فتبسم هازًّا رأسهُ وقال اما انا فلم يوافقني القآء القبض عليهما حيًّين لان لسان القاتل اشد خطراً من ذراعهِ ولا اخفي عنك انني فضلت اجتناب الاشاعة التي لا بد ان تذيع بعد كلامهم ولهذا السبب امرتك ان لا تستصحب غدارتك ولهذا السبب ايضاً امرت رستم ومصطفى ان يخفيا الجثة ويخفيا ايضاً كل اثر يدل على ما حصل الليلة

وقد كان انهُ عند ما جآءتني دعوتهما ان الكولونيل لاسال كان في غرفتي ففوضت اليهِ انتخاب واحد من رجالهِ فوقع اختيارهُ عليك لانك شجاع وقد قمت بكل ما ارجوهُ منك . وقد اخبرتك بكل شيء فأنا مرتضٍ وانت مرتضٍ وعسى ان يكون ذلك كافياً لان تحفظ هذا السر حفظاً تامًّا وتصرفهُ عن مخيلتك كأنهُ لم يكن . قلت ثق يا مولاي اني أقوم بامر جلالتك . قال فما دمت انا حيًّا تبقى شفتاك مختومتين على هذا الامر . قلت اعدك بذلك يا مولاي وأنني أنسى كل ما جرى من هذه الدقيقة واخرج من هذه الغرفة الآن كما دخلت اليها في الساعة الرابعة بعد ظهر أمس . فتبسم وقال لا يمكن ان تخرج منها كما دخلتها فانك دخلت برتبة ملازم اول وستخرج منها برتبة قائد مئة ثم وضع يدهُ على كتفي وقال أتمنى لك ليلة سعيدة ونوماً هنيئاً يا حضرة القائد جيرار